

عرشي الصّقيل

وقصص أخرى

عمر حمّش

عرشي الصَّقيل
المؤلف: عمر حَمَّش

تصميم الغلاف : رشا السرميطي

الطبعة الأولى : أغسطس 2017
رقم الإيداع : 2017/17060
الترقيم الدولي : 1-190-769-777-978

جميع حقوق الطبع محفوظة
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة - 2 شارع شريف
- الدور الخامس - مكتب 57
م : 01010490247
ت : 02)23963002

- 1 -

المستكشف

عندما شرع الطَّرُقُ، تقطع الصمتُ،
كان ثمة خطر داهم يقتربُ كخطواتٍ، تأتي، وتتوقف،
وكانت أرضية الزقاق تتسق .. تقربُ الطَّرُقُ، وتبعده.
كان قرب زوجته .. نظراتهما تلتقيان، وتتباعدان،
وكان هو على وشك الوقوف لفتح الباب الذي لا يقرع.
في نهاية الليل كانا على حافة الجنون .. صاحت؛ فصاح .. قام على
ساقين مترنحتين .. خطأ .. ثمَّ خطأ .. تمسك بالجدران، كان الطَّرُقُ
يخفت متباعدا .. جاور باب الصفيح .. ألقى كفه، وأدار مزلاجه،
صار في مواجهةٍ مع الخارج .. تلمس بقدمين حافيتين الأرض،
وكان الزقاق ضيقا بحجم جسده الدقيق.
أثنى جذعه، وتقدَّم، تحيّل للحظةٍ أنه بطل خفيّ، لا يراه أحد،
بطلٌ وقت غاب كل البشر، راقته الفكرة، ورفع ساقيه، واحدة تلو

الأخرى، كمن سيقبضُ بنفسه على مكنن الخطر، تتبع الطرق، حتى اتسقت معه ساقاه، خطوة بطرقة، أخذه الطرُق، وكان الملبى المستجيب، غير هيَّابٍ رغم لهائه، وأمَّا رجفه؛ فأرجعه لهول الموقف، لا لجبنٍ فيه، استدار الطرُق؛ استدار .. توقف، فتوقف .. ثمَّ عاد لخطوّه .. طرقة، بخطوة.. في لحظة أدرك أن الطرق يخرجُ من داخل كوخ بعينه، هزَّ رأسه في عتمة الليل، هزّه كمستكشف، ثمَّ اعتدل أكثر، أنهض كتفي جسده الفارع، ومن فوق الجدار الواطئ ألقى نظرةً، فرأى ساقا ممتدّة، وقدا تدوس، كان حديدٌ سرير صغير يروح، ويحيى.. وكان الحديدُ يطرُقُ الإسمنت .. وكان رضيعٌ يغفو متنهما بالطرق.

- 2 -

وسيلة عبور

سألني: قصيرٌ كشريةٍ شهيدٍ .. ثَقِيلٌ، مديدٌ بلا منتهى؟
فأسرعتُ: العمرُ.

فقال: أصبتَ وفزتَ، فلك أن تتمنى.

قلتُ: طُربِّي، وحلِّقْ.

فانحنى فاردا جناحين، وأصعدني؛ حتى صار سهما مُشعاً.

قلت: أين؟

ورأيتُه مع كلِّ خَفَقَةٍ طَرَفٍ؛ يحطُّ على أجراسِ مُدنٍ؛ خمنتُها عواصمَ
أوروبا، وقد شخصتُها، رغم جهلي المسبقِ.

وطاف، وطفْتُ، وقد كنتُ ذَكَرَ حَجَلٍ يتنقلُ بين جناحيه، وهو
يطلقُ صغيراً لكلِّ نَقْلَةٍ، ما بين كلِّ لمحَةٍ طرفٍ لي، ولمحَةٍ، حتى
استقامَ فجأةً، وهبطَ على مآذَنَ أعلمُها علمَ اليقين، وتبينتُها تبينَ
الواثقين، وصحتُ:

— القدس !

فضحك الجنِّيُّ من تحتي، وقال:

— تركتها لآخر تطوافنا، وأعلمُ توقُّك ..

قلتُ: منعوني عن بلاطها، ومنذ عقودٍ لم أطأها.

وقلتُ: أنزلني. فأُنزلني، وهرولتُ تاركه، حتى عبرتُ بوابةَ باب
العمود، وشممتُ رائحةَ سوقها المعقود؛ من قبل أن أصله، وفي
هرولتي؛ لاحظت عيوناً محدَّقةً، ترمقُ سحتي مستنكرةً، فتجاهلتُها،
وانحنيتُ على طِشتِ بائعة فجِّلٍ، وقد خمنتُها للحظةٍ أمِّي المغادرة،
وصحْتُ: أمِّي!

ولامستُ عينيها بعيني، ثمَّ تفهقرتُ مترنحا، أخزَنُ في عينيَّ ما
أراه، ولما تتبعتُ العيونُ جرأتي، ولاحتني أرجلٌ، وهرولتُ سيقان،
ثمَّ امتدت قصبة رشاشٍ؛ وجدتني ثانيةً طيرَ حَجَلٍ على ذاتِ الجناح،
والجنِّيُّ يقولُ:

نسيتَ نفسَكَ؟

وعاد سهما؛ قد انطفأ، يهروُلُ في ليلٍ أكحل، حتى رأيته؛ قد صار
دابةً لا تصلُّحُ، وقد هوى في ذات البقعة من مخيم غزة، وهو يقول:
انزل .. كفاك.

- 3 -

عرشي الصَّقيل

الليلةُ تناسخ قلمي دلاء .. نثرتُ على الرملِ الحروف ... فأنبْتُ
زهورا، وعصافيرَ .. كانت العصافيرُ تأتي هامتي، وتروح .. وكانتِ
البتلاتُ ترمقني بغموض ..

الليلةُ ... كنتُ ساحرا في دنيا يباب .. خطوتُ بدلائي .. وأنبْتُ
نبتي .. صحتُ بفضول .. من أين لك كل هذا الحضور .. ومن منح
الفقيرَ حقَّ السقايةِ لأرضٍ موات ..

الليلةُ .. كنتُ المغامرَ، ولم يكنْ غيري .. لم تكنْ أنثى تمارسُ معي
الهمسَ؛ فنثرتُ حرفا ..

قلتُ: كوني. فكانتُ .. جاءتْ مع شهقةٍ كولدَةٍ سيفٍ .. ووقفتُ
ترنو هناك .. لم يكنْ سوانا مع عصافيرِ البوح .. وزهرٍ اتسع مداه.
قلت: هذه مملكتك.

وقلت: هذا عرشُ بوحِي الصَّقيل .. أبوحُ، وتهمسين .. أبوحُ،

وترقصين .. وفعلنا ... وبحثُ، وبحثُ .. حتى كان مطرٌ، وجاءت
ريحٌ شفيفةٌ بلا صقيع ..
الليلةُ ... لم أنثر حرفاً للرصاص .. لم أخلقُ ناراً .. ولم يكنْ ثمةُ
ذئابٍ تمارسُ قربنا النُوح ..
الليلةُ .. كنتُ فارسَ نثر .. نثرنا .. ونثرنا وكانتُ تصحبنِي،
مع ضحكاتٍ كحدِّ الزغاريد ... كانت تقولُ: ما أجملُ فنَّ البوح
.... وتظلُّ تضحكُ ...
الليلةُ .. لم يكن بصحبي بشرٌ، ولم يكن شيطانٌ، فقط كان ثمةُ
ملاكٌ، يضحكُ تحتَ عصافير صنعَتُها بحرفي .. وبتلاتُ استجابتُ؛
فتناولتُ في الضحكِ .. وتمايلتُ للريحِ ...

- 4 -

ظهرُ جدتي

في طفولتي كنتُ حائراً في أمرِ ظهرِها الذي ينحني إلى شكل زاويةٍ قائمة، وكانت حيرتي تشتدّ كلما أمّيتُ تقول:
من اليهود.

وتتدافعُ صورُ عسكريّ يشنون ظهرَ جدتي الصبيّة.
قالت أمي: جدك هاجر إلى الخليل من بعد طرده من المجدل، سنة فقط، نصب نوله في بيت أمر، ثمّ دهمه السرطان، فتسلل بعائلته راغباً الموت جوارنا في غزة، جاءنا مريضاً يقودُ زوجه المنحنية عبر ممر الجبال، معها أخوالك الثلاثة.

كانت أمي تقول: اليهود. ولا تزيدني، كنت أرقبُ جدتي بوجهها المريمي، ناصعاً صافياً، وأستمع لطريقتها في لفظ الحروف وهي تحاطبني، فأخاطبها بلساني، وعقلي شاردٌ في سبب انكسار ظهرها.
كثيراً ما تخيلت الجند يقصفونها بالعصي، أو يدقونها بأعقاب

البنادق، وتصورت ضابطا يأمر: كفى. من بعد سماعه لفرقة عمودها الفقري، حتى جاء يومٌ كنت فيه مع رفقتي، جاءت جدتي زقاقنا، ظهرها منكسر، ووجهها في الأرض، يرمقُ التراب، هرولتُ لأمسك بيدها، وأستمعُ إلى دعائها الرب: أن يحفظني. ولما قدتها؛ وجدتهني أسارعُ بالسؤال: جدتي، كيف كسر اليهودُ ظهرَكَ؟ رمتني بنظرة، وخلتُ عينيها الزرقاوين ترققان دمتين، صمتُ في حضرة صمتِها، إلى أن أَلَقْتُ بجسدها النحيل على فرشة فناء كوخنا الصغير، دارت بعينيها، وسألتهني عن أمي. قلت: أمي في سوق المخيم. فوجدتها، تأمرني بالهبوط جوارها، لأكتشف رغبتها بالكلام.

قالت جدتي، وقد اعتدل ظهرها لبرهة: كنا في حِظَر تجوال، وقد جمعونا نحن المتبقين في حارةٍ واحدةٍ من حاراتِ المجدل.

ومن بعد تنهيدة، أكملت: كنا ستة، أنا وجدك، وكانوا أخوالك وقتها أربعة، وطال الأمر، وامتدَّ الحِظَرُ أسبوعا كاملا، في اليوم السابع، خالك الرضيع انطلق يبكي، صاحَ بتواصلٍ، كمن ينادي القدر. صمتت جدتي، صمتت طويلا، وأنا المأخوذُ، كنت أعلمُ بهول ما ستلقيه على مسمعي.

قالت: فجأة، وبدون حساب، وجدنا خالك الأكبر يحمل أخاه، ليفتح الباب، كان ينوي إسكات أخيه مع رؤية مشهد الشمس والهواء..

واهتزّت كمن يسمع بالأمر، ويراه للمرة الأولى:

فتح خالك باب الدار، وسمعنا الرصاصة.

قالت: رأينا الاثنين يهويان على العتبة.

ورأيتُ اختناقها، والدنيا تعودُ إلى النواح..

قالت: في دقيقةٍ وصلوا، سحبوا جثة خالك إلينا، ثمَّ أغلقوا الباب، فانشئتُ أتحمسُ عينيه، انشئتُ، ومن بعدها لم يرتفع ظهري.

وشهقتُ جدتي؛ لتقول:

عادوا بأربعةٍ، وبأربعةٍ معاول .. سحبوه، ليدفنوه هناك بصمت.

قالت جدتي: دفنوه، ثمَّ طردونا كلنا، وكان ظهري قد تيبس، ووجهي انحنى إلى الأرض.

- 5 -

دمعٌ وحشرة

عندما انهارت دفاعاتنا؛ أتننا عساكرنا من الحدود، والسلاحُ صار في شوارعنا مثل طيورٍ على الترابِ هَوَتْ.
هاجمت الناس مخازن المدرسة القريبة، وصاروا يعودون بما تسنى من طعام مُعلَّب، ويهرولون قبل وصول جند العدو قلب المخيم.
كانت غنائمنا من جندنا الهاربة!
.. جارتنا أم حسين لم تذهب، لكنها أشارت لولدها الآخرس، فانطلق، وجلست هي بانتظار علب الفاصولياء، والبازلاء.
بعدها فوجئنا بصراخ، وولولة، وحين استطلعنا الأمر، رأينا الآخرس يقف، وأمه تلقِي للتراب ببندقية.
كانت أم حسين تصيح: غاب، وجاب.
لم يضحك من جيراننا أحد، فقط ظلوا يحدِّقون في التراب حائرين ..
ويومها حدّقت أنا أيضا، فرأيت للبندقية دمعاً .. وسمعت لها حشرة

- 6 -

تدخين

يسعل جاري، ثم يرسل صفيرا، ولما يلتقط أنفاسه؛ يقول: لم أنم الليلة .. والله.

لكنه يشعل سيجارة من سيجارة، ويشرع بمصّ دخانها، ونفثه .. أسأله عن زمن تدخينه؛ فيسعل حتى يتقطع، وإذا ما استرخى؛ قال:
من سنة 56

ثم يرمق دهشتي، ويكمل: تعلمت التدخين من الدوليين. وحتى أفهم؛ يوضح: مكث اليهود في غزة ستة أشهر، ثم انسحبوا، فجاء الدوليون، قبعات زرقاء، وعيون زرقاء.

ثم يصمت ليستدرك: ليسوا كلهم .. الحقيقة كان هناك هنود أيضا، يلفون رؤوسهم بقماش ملوّن

يقول: صرنا نذهب إلى معسكرهم القريب من الحدود .. نحادثهم بالإيماءات، وبهزات الرؤوس؛ فيخرجون علب البلارز، ويقدمون لنا

السجائر، وهم يتسمون.
ويعاوده السعال .. ينحني حتى يكاد يلامس ب صدره التراب ..
يسعل، ثم يسعل، حتى أخاله قد قذف روحه.
لكن جاري يعود إلى الحياة .. يمتص الأنفاس .. ويقول: أيه ..
كانت أيام.

- 7 -

محمود

قصيرٌ، بدينٌ، رأسُه كبيرٌ بشعرٍ منفوش، وبعينين واسعتين، يشوب
بياضهما حمرة دائمة، وبأنفٍ ضخمة فيه اعوجاج، ورقبة قصيرة، تكاد
لا ترى، على كتفين غير متقابلين.

ذاك محمود الذي كان يمتهن السير في أزقة حارتنا، ليطلق صوتا
كالعويل، معتقدا أنه يغني، وأن الناس معجبون، يردد مقطعا لا
يتغير، يلقي به على مسامع من هم خلف الجدران، ثم يتوقف، ليعاود
الأمر مستمتعا، والناس في البيوت يتسمون معلقين:

هذا محمود . عاد محمود . يخرب بيتك يا محمود .

ومحمود يردد: على حسب وداد قلبي يا بوي .

وكثيرا ما كان يتوقف على كل باب؛ ليلقي مقطعه كنفاً مكلف
..إلى أن غاب، ولم يعد، حتى جاء خبره؛ وقد عثر عليه مضرجا
بدمائه، ومشهرا ذراعيه على الإسفلت مشكلا صليبا.

علمت الناس أن الدورية كانت أردته، لكن ما لم تعلمه الناس حتى اليوم؛ دافع الضابط لقتل محمود.

انتشرت الأقاويل، منهم من قال: أن محمودا توسط الإسفلت، وأطلق فيهم صوته، وأن الخلق تضاحكت، فاغتاظ الضابط، وأطلق رصاصةً على الجمجمة المهتزة.

قالوا: إن محمودا تمايل، ثم سقط فاردا ذراعيه

وقالوا أن آخر ما غناه:

وأنا راضي بالمكتوب.

ثم هوى رأسه الصليب.

لكن ثمة شهودا آخرين قالوا:

محمود لم يغن، فقط أوقفهم.

وهناك من قال: إن محمودا حاول أن يتحدث،

وأن ثمة خطابا كان محمود على وشك أن يلقيه.

وقالوا، وقالوا، لكن الأهم من كل هذا وذاك؛ أن صوت محمود عن

حارتنا غاب .. وأن محمودا قد مات ...

- 8 -

تعاظِدُ

جارنا عبد الوهاب ساءته أحوال الأرامل، واليتامى، فأقسم أن يمدَّ يد العون لكلِّ محتاج، وأن يغيظ ذاك العقيد المتكبر، الذي يمرّ رافعا أنفه، ويأنف حتى عن طرح السلام.

نشر عبد الوهاب مناشدة أدمت قلوب البعض ممن خلف الحدود، وما هي إلا أسابيع؛ حتى وصلت كفه دفعة مال محترمة، فترقرت عينا عبد الوهاب للشيك القادم، وطرب قلبه لنجاح سعيه .. فكّر في أيّ قلوب من الجيران يُسعد، ومن بعد طول تفكير؛ قرر أن يبدأ بإغاظة العقيد المتكبر، فاشترى عربة جيب بيضاء تلمع في الشمس، وصار يروح بها، ويحيي عن باب العقيد .. والعقيد يتأمله، ويفكر.

بعد أيام قليلة وصل الشيك الثاني، فقلّبه طويلا، وقال: ليست ابنة العقيد بأفضل من ابنتي، فاشترى لها «كايا» وصارت ابنته تمر عن باب العقيد، والعقيد يتأملها، ويفكر.

مع وصول الشيك الثالث صاح عبد الوهاب للرقم الآتي، وقال:
الآن سأبني فيلا أجمل من فيلا العقيد، فلم يكن يوما ذاك المتغطرس
حامل الابتدائية أذكى مني.

وعلى الفور استقدم أمهر البنائين، وشرعوا بهدم بيته، لينشئوا بناية
أجمل بكثير من بناية العقيد .. وكان عبد الوهاب يقف ويشير على
العاملين، وجاره العقيد يتأمله ويفكر ..

وظلت الشيكات تأتي عبد الوهاب، وعبد الوهاب ينتفخ، ويرفع
أنفه؛ ليعلو عن أنف العقيد، والعقيد على باب فيلته؛ ينفخ دخان
نارجيلته، ويتأمل عبد الوهاب، ويفكر.

- 9 -

فتوحات

تكاثر المراجعون، ولما يأتِ الموظف، صحا مجاوري من غفوةٍ ..
تثاءب، ثمَّ فاجأني:
هل تعلم أننا نحنُ من سيفتحُ البيت الأبيض؟
قلتُ: من؟
حدجني بنظرةٍ استصغار؛ ثم غفا.
صاحت امرأة: ورائي عجین وخَبِيز.
وطال الأمرُ، حتى علا ضجيج؛ فصرخ موظفٌ مجاور:
وحدوا الله يا جماعة.
صحا مجاوري؛ ليحدجني ثانية ويقول:
فإن عدتم؛ عدنا؟
ظَلَّ كرسيُّ الموظف شاغرا.. انسحبت ناس، وجاءت ناس،
ومجاوري يهزُّ أوراقه مع صوته:
البيت الأبيض بذاته.

- 10 -

واحة الخالسين

عادت جبالي تحوم، خلّتها لا محالة ساقطة .. هرولت هرولةً فارّ؛
فكانت الدنيا ذاتها .. إسفلت يترنّح، عربات تمضي، ووجوه أعتمت
في شمسٍ نهار .. كنتُ أضربُ إلى مفرّجِ كروبي،
صعدتُ الإسفلتَ وهو المطروق بلا صعود؛ حتى وصلتُ الفسحةَ
الدائريّة المُعبّدة، عبرتها مراوغاً، ولم أتبين ملامحَ لأحد؛ خلّتُ المارينَ
فارين مثلي؛ وكلُّ إلى مأمِنِه يشدُّ الخطى.
اجتزتُ ما تبقى من عمارٍ، وقد ساقطني ساقاي؛ فكنتُ المسوقَ
المطيعَ إلى فرجةٍ سورٍ كَلَحَ، تهدّم في غير موضع.
فوق طرقةِ التراب؛ صعدتُ سلّم السماء، وقد تجهمت فوق هامتي
الجبّال.
عبرتُ؛ فتنفس قلبي، وقد حسبتُ الأحداثَ المصطفةَ عادت
عرفتني؛ فتبسّمت.

رمقني صمْتُ الأشواك المهيَّب، وشرع خطوُ عينيَّ يتحسس تحت
البلاطِ مضرِبَه، كنتُ داعِياً؛ جاء يدعو الراقين، وقد خفق صدري
لبزوغ رؤوسِ الشواهدِ.
عدتُ أقولُ:

هذا فلانٌ، وذاك فلان .. هامستهم همسا، وخاطبتهم صياحا، ليس
يسمعهما سواي، والموتُ عاد يتلقطُ المغادرين فرادى، ويحصدُ جمعا،
وهدرتِ الطائراتُ، وتبعثرتُ أجساد، ووجدتني أصيحُ، وأجمعُ
عظاما من جديد، ورأيتُ جريَ النعوش، ذاتِ النعوشِ مُحَمَلَةً
بالأشلاء، وبالهتاف، وعادتِ الأمنياتُ أمامي تُذبح، ومفجوعةً
تموت، ووقفتُ أرمقُ الملامحَ الأخيرة؛ وهي تهوي في حُفْرِ السَّفَرِ
الساكنة.

لم أقوَ على استبقاء وجهٍ بعينه، فالوجوه تزاхت فوق الشواهدِ،
وترنحتُ، وقد عبرتُ كلابٌ، وتقافزتُ قطط .. وامتطَّ نباخٌ، وماج
مواء، وحسبتُ كلَّ هذا ندبا، ورثاء. قلتُ:
ربما اعتراضا على تجرؤِ تطفلي.

في كلِّ هذا شدتني أشجارٌ عنيدة، أنبتها الموتُ، وأزهارٌ شوكيةٌ،
خلقتُ تخصصا لمهايةِ الموقف، فزادته فرادة، اتسقتُ أنا، حتى
أحسنْتُ، وتماهيتُ مع قداسةِ المشهدِ، وانطلق من أعلى جمجمتي
خيظُ دخان، سرعان ما انفلت؛ ليشتدَّ، ويمسي عمود مدخنة رجل.

صرتُ أتنقُلُ - مفلتا دخاني - وضربتُ في الصمتِ؛ حتى خَفْتُ
أحمالي، وصرتُ بوزن ريشةٍ تلاعبت، وقد أثملها صمتٌ مريح، لا
يقطّعهُ إلا النباحُ، ثمَّ المواء، كلازمةٍ لحنٍ لن يدركه سواي، آتية؛
فيستقبلني؛ ألقي عليه أحمالي، فيلقي سيمفونيته.

يقولون: مشعوذ.

يقولون: مجذوب.

مسحور. أو مجنون.

يقولون ما يقولون .. لا شيء يمنعني؛ أنْ أهرَّبَ رأسي من الجبالِ
الحائمة، كلما تداعتُ، وأنْ أكونَ مع كلِّ هذا الحبِّ في جنةٍ واحدةٍ
الخالصين.

- 11 -

إطعام

أُمُّ عَلِيٍّ لَا تَبْرُحُ الْجَدْرَانَ، فَقَطَّ يَأْتِيهَا ضَوْءُ النَّهَارِ؛ فَيَضْرِبُ حَصِيرَتَهَا،
لِتَصَافِحَ نَوْرَهُ، دُونَمَا تَرَاهُ، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْرِقَ بَابُ كُوْخِهَا
أَحَدٌ

قِطْعَةُ لَحْمٍ، فَتَاتَ خَبِزٌ، تَفَاحَةٌ أحيانًا، أَوْ أَيُّ شَيْءٍ كَانَ.
أَبُو ذِرَاعٍ أَثَارَهُ الْفُضُولَ، جَاءَ بِخَفَةِ؛ يَرِصُدُ عَنْ كِشْبِ سَرِّ الْعَمِيَاءِ ..
رَأَاهَا تَرْفَعُ رَأْسَهَا، كَأَنَّهَا عَلَى مِيعَادٍ، وَهِيَ تَنْشُرُ ابْتِسَامَةً التَّجَاعِيدِ، ثُمَّ
رَأَى سَقَطَةً حَبَّةِ الْكُوسَا الْمَحْشُوءَةِ بِالْأَرْزِ وَاللَّحْمِ، وَمَيِّزَ فَرَحَةَ الْكَفِينِ
الْنَاشْفِينِ، أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَتْ عَلَيْهِ ذَاتُ الْقِطْعَةِ الَّتِي تَتَخَفُّفُ أَطْعَمَةَ آنِيَةِ
بَيْتِهِ .. شَهَقَ أَبُو ذِرَاعٍ، وَهِيَ تَرْمِقُهُ .. وَحَدَّقَ وَهِيَ مِنْ فَوْقِهِ تَمُوءُ ..
شَهَقَ، ثُمَّ طَاطَأَ .. وَمَضَى يَجْرُ سَاقِيَّ بَطْنِهِ تَارَكَهَا فَمَّ أُمُّ عَلِيٍّ يَدُورُ، وَعَلَى
مَهْلٍ يَلُوكُ الطَّعَامَ بِلَا أَسْنَانٍ.

- 12 -

الأصنام

لستُ أدري متى بالضبط؛ هاجمتِ الأصنامُ مدينتنا، ولا من أين تأتتْ لها تلك الحركة العجيبة، كنتُ أعلمُ أنها خارجُ نطاقِ العمران، إليها أذهبُ مع رفقتي الصغار؛ نركضُ من حولها، وهي شاخصةٌ بعيون الحجر، نمتطيها في غفلةٍ عن أعين حراسنا، وكم من المراتِ كنا قد بلنا في مآقيها.

كانتُ فرجةَ العابرين، وقواعدُها ملاذُ العاشقين، قربَ غروب الشمسِ وهي تطوي على خصورِها أذرعَ الرخام .. هناك .. كانَ الهمسُ يملو، والعاشقون يتبادلون البوح، وربما خلسةً القُبَل. كانتُ من الماضي البعيد، نخاطبُها؛ فلا تستجيب، نركلُها؛ فلا تصيح، كانتُ ميراثًا منسيًا من القَدَم .. فقط كنا بها نستظلُّ، والشمسُ تأتي على قاماتها تُطل .. تنفضُ عنها، وعن عيونِ النهارِ ما تبقى من غمام.

فجأةً وعلى غير انتظار؛ استطالتُ أصنامُنا، وكلُّ صنمٍ خطأ.
في غفلةٍ غادرتُ .. مشتٌ في الطرقاتِ، وفي الأسواقِ، وفي الحاراتِ ..
لم أدرك كيف كلُّ هذا حدث، أطفالُنا، ونساءُنا، وحتى حاكمُ مدينتنا
مُلقي الخطب؛ كلُّهم لخطوها صفقوا، وكلُّنا صرنا نقفُ متفرجين ..
نحاولُ فقط .. فقط نحاولُ فهمَ ما تدبره أصنامُنا.

مع الوقتِ .. صارتِ الأمهاتُ تفقدُ صبيانها، ومع البحثِ يكتشفنَ
أنَّهم تحولوا إلى أصنامٍ صغيرة.
مع الوقتِ .. صبيانُ الحجر تكاثروا، وأخذوا يكبرون كحجارةٍ
نامية.

غزتنا الأصنامُ برفقٍ، وحراسُنا نائمون، وفي نومٍ حراسنا تناسختُ
أصنامُنا.

أنا عقلي ظلَّ حائراً .. ظلَّ صدري يَمور .. أحاولُ، ولا أحاولُ ..
أفهمُ، ولا أفهمُ، وحيرتي زادت؛ حينما رأيتُ الحاكمَ ذاته؛ قد صار
حجراً بوجهٍ لا يلين، وأغربُ الغريبِ أنَّ زوجته تلك اليانعة، التي
كانت في حديقته تُربي الياسمين؛ صارت تذوي كشجيرةٍ مسَّها
الياس، وتلوَّحُ بيدٍ عجفاء تباهيا ببعليها الحجريِّ الجديد.
شمسنا أيضاً:

ذاتَ يومٍ شمسُنا أعتمتُ .. رأيتها فوقنا رحي حجرٍ معتمة.
صرتُ أتحسُّ لِنَ جسدي .. أسمعُ حرَّ أنفاسي؛ ثمَّ أعدو ..

صرتُ أعدو بلا شاغل لي؛ إلا السعيّ بين الأصنام ... أصنام رجالٍ،
وأصنام نساء، وأصنام صغار، صرتُ مهرولاً مديتِنا؛ الباحثَ عن
بقايا متحركة، كائنٍ يتحركُ؛ كي أصبحَ:
أنتَ حيٌّ يا صديق .. وفي عينيكَ لم تزل يقظة .. ؟

- 13 -

خلف بيتي ذئب

هكذا ..

لم أذهب إليه؛ فجاء .. لم أمثلُ قباليته متفرجا؛ فاقترح هو غازيا، لم أرقب أنيابه، ولا دورانه داخل قفصه؛ فهبَّ لعيني مثل قدر.
أنا زاهدٌ دنيانا، المعتكفُ منذ عقود، أمارسُ تحديقي في سقفي، وأرقبُ نجمي الآتي؛ فتأتيني الآن من خلقِ الله الذئابُ.
كنتُ تنعمتُ بقلولةِ شمسٍ نافذةٍ دافئةٍ، حين هببتُ؛ أستكشفُ سرَّ القيامةِ التي قامت.

عشراتُ الصَّبيانِ كانوا يهرولون فوق شتلاتِ الزيتون .. صحتُ؛ فصاحوا، وتعاضم الحشدُ تحتي، وفوق سورِ حديقة بيتي.
عدتُ أصيح؛ فصاحوا: ذئب!
جالت عينايا لأفهم؛ فرأيتُه بأَمِّ عيني، رمقني بعينين صفراوين، ودار بأنيابٍ مُشرعة.

لم أذهب أنا؛ فجاءني هو.
لم يُجِدْ اعتكافي، ولم تنفعني عزلتي، وها هي الحشودُ، وذئبٌ حقيقيُّ
يحركُ أنيابَ فكّيه.

قلتُ: ستأتي الشرطَةُ إذا .. وربما الدفاع المدني، وخمّتهم سيلقون
شباكا، ويطلقون سهاماً، قبل أن يفعلها هذا الذئبُ؛ فيعبرُ بيتاً،
ويلتهم طفلاً، أو ذراع عجزوز مستلقية سارحة في ملكوت الله.
كان الحشدُ بين الشتلات يموّجُ، وكان رأسُ الذئبِ المحشور يدور،
ويطلقُ عواءً تقشعر له الأبدان، أمّا الصبيّة فتحلّقوا، يتصايحون، لا
يقاربونه، ولا يتباعدون.

أنا هناك، كنتُ على النافذة معلقاً في الانتظار؛ إلى أن مضى الذئبُ ..
مضى بقراره، كأنّه فهم أن الأمر طال .. مضى راضياً، والحشدُ أمامه
ولى الأدبار.

أين مضى الذئب .. من يعرفُ أين مضى .. نزلتُ كالمنتهك، ثمّ
غادرتُ لأفوّم اعوجاج الأشجار.

- 14 -

الديكُ الذي أضحى رورة

في دار المخيم نما، لكنَّه جاء معقوفا، برأسٍ دقيقٍ، يتقدمه عُرفٌ عالٍ؛ يطلقُه لريح، ولغيرِ ريح، يحدِّبُ أنفه كمنقار، ويحني عوده قليلا؛ لريحَ ظهره النحيف.

يناديه الصغارُ: يا ديك

جارُّه «المنسيّ» يحركُ رأسَ جثته الممدَّدة في الزقاق؛ كلما قال:

أهلا ديك ... تفضلُ يا ديك.

لكنْ أن يصبحَ دودة!

هذا الذي أطار عقله، وأغرق عينيه في سحابة سَواد.

أنْ يتمنى نعمة ابنة المنسيّ، وهي لا تتمناه .. يرسل خياله؛ لوقع خطوها على صحن الدار، يلتقطها؛ وهي تردُّ على طلبات أبيها المتكررة للشاي،

أن يمشي كرجلٍ صار ديكاً، أو يتقوَّس كديكٍ كان رجلاً، وأنْ

يهربَ كلما انهمرتُ الحجارَةُ على الحُؤُذ، يفرّ مع الأولاد؛ من قبل أن يلتقطوه؛ فيدكّوا عظامه؛ من غير أن يتفهموا أنّه ليس سوى الديك .. وأن يحجّره الصَّغارُ مثل جريح حرب، وأمه تأتي؛ لتنوح، وذراعاها فوقها تحومان، مثلما تحومُ أذرعُ كل الأمّهات.

والمنسي قد يقهقه، وهو يلوي عينيه:

لا تخرج يا ديك.

هو الديكُ ذو العرفِ الشهير، النحيلُ الذي قد تقصفه أيُّ ريح.

كلُّ هذا ارتضاهُ .. لكن أن يصبح دودة؟

كان وقتها يستحمُ .. يغرفُ الماءَ بالمقلاة، ليسكبه مباشرةً على عُرْفِ رأسه، والماءُ يهوي إلى ساقيه القصبيتين.

كانت الأشياءُ تبدو سليمةً، وكانت أذناه تحومان لاستقبال ما تسنى من صوتِ نعمة التي خلف الجدار؛ لتتنفّضَ ساقاهُ كوترَينٍ لكلِّ همسةٍ يقذفها الجدار.

لم يكن ما ينبئُ بخطر؛ قبل أن يعلو الصخب، وتأتي الهرولة، ثم في لحظةٍ يطيرُ الباب،

وفي لحظةٍ يصير ديكاً منتوفاً من الثياب.

صرخت أمّه، وهم يسحبونه .. وصرخت وهي تتعثر .. وصرخ هو كقصبةٍ ريحٍ مثقوبة، وصرأخه جاء صغيراً معطوباً.

تضاحك الجنْدُ وهم يدفعونه عارياً إلى بيتِ المنسي، تعلق بصفيحِ

الباب .. لم يفهم، ولم يتخيل عبوره إلى هناك.
على البابِ نادى الله، حتى جاءه صوتُ المنسي المتهدّج:
جننتنا يا ديك .. ولك ادخل تنشوف شو بدهم من سمانا؟
عند دحرجه إلى الداخل؛ كان مومياءً ترتعدُ مكشوفة، كان كيسُ
جلدٍ ضمّر، تشجّه عظامٌ متبقية، على عينيه حطّت غيمةٌ سواد،
غمّرتّه، ثمّ انغلقتُ .. لم يتبقَ في الدنيا سوى قهقهة الضابط، وشهقة
نعمة ... ثمّ صيحةُ المنسي التي شقّت فؤاده
معقول يا ديك؟
ولك أنت دودة مش ديك!

- 15 -

المعلّم بهجت

كان بظهرٍ منحنيٍّ قليلا، وبوجهٍ أحمرٍ تخاله - إذا ما تكلم - يطفحُ دما ..

في جلسات المعلمين لا يتسمّم، ولا يتكلّم، السيجارة لا تغادر شفّتيه، وإذا ما ذوّت؛ دفع بأخرى .. كان يشتعلُ .. ينفثُ سحاباتٍ غضب، وهو يرددُ عبارة واحدة: ولك اسكت .. أنت شو بيّفهمك؟ كان ناقما، وصامتا فقط ... ولو أنت أعدت عليه رأيه الذي كان اعتنقه؛ لسارع؛ وعاد صاح:

ولك أسكت .. شو بيّفهمك؟

كان يقضي وقته متنقلا ما بين البيت، والمدرسة المجاورة، وبعد إياب الطلاب يبدأ رحلته الثانية في تعليم الدروس الخصوصية، باهتا كان رغم حمرة وجهه، بعينين داكنتين تحت عويناتٍ سوداء، تحبّثان القلق، سترته لا تتغير طيلة العام، صيفا، أو شتاء .. تشغله

سيجارته فقط، مع نظرة سخطه الناقمة.

يوما سقط المعلّم بهجت ... سقط، ولم يقم.

كان على سرير بيته ممددا؛ جاء المعلمون والناظر .. كنا صفّا؛
نُقبلُ جبينه البارد؛ ونمضي .. لحظتها رأيتُ كاملَ عينيه .. فهمتُ
معنى الموت؛ حينما لا تقفلُ العينان .. ارتعشتُ، وأنا أنحني، ولكم
حاولتُ أن أمنع انهياري حينما تتم:

«ولك شو يفهمك؟

ولك غلط ..

- 16 -

يوم دراسي

على بوابة المدرسة؛ تصايحوا: كلب .. كلب.

جرى الكلبُ؛ فأساء الاتجاه ..

في السوقِ تدافعوا من خلفه؛ فتصايحتِ النسوةُ، وهاجتُ طيورُ
الأقفاص ... شتم الباعةُ ذاك الصّباح؛ وهم يجمعون خضارَهم
المتناثرة .. عمّ الهرجُ، والمرجُ؛ حتى صار الحشدُ يجري في الشارعِ،
وكان الكلبُ لم يزل يهروُلُ مندفعاً، ويمارسُ النباح.

قُربِ الناصية ارتعشتِ جندُ الدورية، والضابط أرسل: قامت
الدنيا هنا ..

صاحت مقدمة الصغار: يهود .. يهود ..

تناسوا الكلب، انحرفوا عنه، فدسّ جسده في الزقاق .. رشق
الصغارُ حبات البطاطا .. رشقوا الباذنجان ... وعلى الناصية تداعى
الصغار على أرضٍ اصطبغت بالدم

- 17 -

كشفت العارفين

من وسادة غرفته المعتمة، ينطلق في عبابٍ يتداعى، ولا ينتهي ..
يسرعُ كومضٍ، أو يبطئُ، يدقُّ بغرابةٍ ساكنٍ دنيا، يستدعي غسقا،
وينيرُ شمسا صاحبة، يطوي الزمن، فيأتي بمن ذهب، وبضربة طَرفٍ
يغيّرُ الأمكنة، يحادث راحلين مضوا، من أبي النّوّاس بعمامته يحدّقُ،
ويهامسُه، إلى الحجاج يأمرُ، فيقومُ سيفٌ، ويلطمُ منجنيق .. يرى
رابعةً تمزجُ اللبن بالعسل، وتأتيه بقدح، وعمرا يغمزُ بعينٍ، وهو
يقهقه، ثمّ يمضي في دربٍ أرضٍ قاحلة ..

ويعودُ، فيأتي ببستان أبيه المسروق، وبجولات قتالٍ فاشلة، وبرحلة
مغادرة، وقد وطأ البيوتَ خلقٌ أتوا من خلف المحيط ..
يهزّ رأسه، فيسقطُ رأسُ أمّه المغادرة، تستحلبُ ضحكتهَا، وأيضا
عويلها أوقات الحرب، والقذائفُ تهزّها ..
الوسادةُ طريقٌ سَفَر .. الوسادةُ بساطٌ ريح .. الوسادةُ سَعْدُه ..

الوسادة لعنةُ عمره.

الليلة غافل الأرجاء، وانطلق .. مرّ بغيمةٍ؛ فامتطأها، جعلها فرسا
تخبُّ، والغيومُ في العتمةِ باتت جبالاً تنداحُ، وكانت العتمةُ أيضاً
بطاحاً، كانت شطآن .. الليلة كان سيد المبتدأ والمنتهى .. صال،
وجال، هوى، وطار .. مرّ بيبابٍ؛ قطعه، وعبر قيعانَ، طارد جنّياتٍ،
كأنّه سهمٌ مذلٌّ بنار .. بجفنيه يغيّرُ الألوان .. من اسودادٍ إلى ازرقاق
.. ثم إلى بنفسجٍ يحلو .. ومع موسيقا ناعمة ترافقه؛ صعد، وهوى
.. عبر، وخرج .. من دهليزٍ أثيرٍ، إلى دهليز .. ومن طبقةٍ أخضرٍ إلى
طبقةٍ عندم ..

وظلَّ مُلّحاً؛ تدفعه الوسادةُ، حتى كان نورٌ، يُرى، وذراعٌ تشيرُ،
والمكانُ يشعُّ، ويتسعُ؛ وهاله الأمرُ، فسجد على الوسادة، كأنّه يسجدُ
هناك، وهتف في الفراش، كأنّه يهتفُ هناك:
تعبتُ مولاي

- 18 -

يمنيّة بيتنا

قالت اليمنيّة على باب بيتنا:

من أنتم؟

وأحكمت تقطيعها: ماذا تريدون؟

ثمّ لاحقت دهشتنا، فأردفت:

اسمعوا .. ما أخذناه بالسيف؛ لا تستردونه إلا بالسيف.

هكذا قالت يمنيّة اليمن سارقة بيتنا في مجدل عسقلان ..

اليمنيّة ذات الفستان القصير الذي كان تحته السروال الملون ..

قالت كلّ هذا؛ من غير أن تنتظر جوابا ..

كانت يمنية بيتنا مستنكرةً حضور المهزومين المفاجئ؛ من بعد أن

اكتسح جيش إسرائيل ذات حزيران جيوشنا، وقد سقطنا سقوط

المغفلين في بضع ساعاتٍ من ذاك الصيف ..

من بعد أن تهاوى أمل رجوعنا مظفرين ..

واستراحت يمينيُّ بيتنا ..

ها هي في لحظةٍ هرولت داخل دارنا، إلى بابنا؛ لترى كابوس
المهزومين يعود ..

لوّحت اليمينية بذراعيها على الباب، وأشارت بأصابعها، وهي
تحدثنا عن السيف.

وجاء عراقيّ العراق الذي يسكن بيت جارنا؛ رمقنا هو الآخر، ثمَّ
سأل:

ماذا تريدون؟

قلنا: جئنا نرى بيتنا.

كان العراقيّ أقلَّ شرّاً، وأكثر تفهماً، ورأيناه يرجو اليمينيّة.
قالت أمّي: تلك غرفة نومي، وتلك، وتلك، وأشارت إلى نخلة
صحن الدار، لنصافح جذعها.

خطت أمي في بيتها كمن تعود، أما نحن فكنا بين الأرض والسماء.
وكانت اليمينيّة تذكرنا بالسيف .. وكان العراقيّ يرقب حركتنا
بمكر ..

- 19 -

عقاب

من بعدِ اعتكافٍ دام عقوداً، مَنَّ المَنَّانُ بضوء بهجةٍ، فجأةً طراً،
فقام رُوحه، يقودُ جسده، ومشت ساقاه مشيَّ سيقان الناس، حتى
جلس على مقعدٍ مخمليٍّ وثير، وقد منحه الرزاقُ زجاجةً من العصيرِ
الوطني، وصدح الزمُرُ، ورجفَ الطبلُ، لكنه - وهو الضعيف -
سرعان ما تقهقر إلى المؤخرة، حتى انزوى على كرسيٍّ من البلاستيك
الأبيض، ثمَّ ما هي سوى هنيهات؛ حتى عاد رُوحه يقومُ، يتبعه
جسده، تاركاً لهم حفلهم الماتع، وزجاجتهم الصفراء ملأى، وقد
خرج لاعنا ساقيه، ولحظةً تركه معتكفه، في الخارج دار مستنجداً،
كهاربٍ من لدغ وشيك، ليبحثَ عن عربةٍ تقله إلى معتكفه، وقد
فهم أنَّ ربَّ العقاب؛ لم يؤخر عقابه على فداحة غلطته ..

- 20 -

استرخاء

لَمَّا عَبَرْتُ شَرَحَ حَائِطِ الرَّاحِلِينَ؛ دَهَمْتَنِي رَائِحَةُ الصُّبَّارِ، وَلَطْمَنِي
شَوْكُ الْقُبُورِ، حَتَّى وَصَلْتُ رَمْلَ بَقْعَةٍ، كَأَنَّهُ سَجَادٌ مِنْ حَرِيرٍ، وَمَا
أَنْ انْطَوَيْتُ مَسْتَرَحِيًّا؛ أُرْتَشَفُ ذِكْرَى الْغَائِبِينَ؛ حَتَّى تَقْشِرَ قَبْرٌ تَقْشِرَ
مَوْزَةً، وَهَيْكَلٌ صَاحِبِهِ قَفْرٌ؛ يَمَزُقُ كَفَنَهُ، وَلِسَانُهُ يَصِيحُ: اخْرُجُوا يَا
عَرَبَ.

ثُمَّ أَخَذَ يَنْفُضُ غِبَارَهُ؛ وَيَكْسُو عِظَامَهُ، وَقَدْ تَوَشَّحَ بِكَابَتِهِ، وَشَرَعَ
يَشْهَرُ سَبَابَتَهُ مُسْتَغْرِقًا فِي إِنْشَادِ مَا حَلَا، وَهُوَ حَالِمٌ مُمْتَدُّ مِثْلُ وَتَرٍ
مُشْدُودٍ، وَأَخَذَ يَعْوُمُ دَاخِلَ سَحِيقِ أَعْمَاقٍ غَامِضَةٍ، وَلَبِثَ هَكَذَا
يَمُوجُ، حَتَّى اشْتَدَّ الْأَمْرُ؛ فَصَارَ غِيْمَةً تَهْطُلُ الْأَشْعَارُ.

وَبَيْنَمَا أَنَا لَمْ أَزَلْ فِي ذَهُولٍ، تَهْزِينِي دَهْشَتِي، حَتَّى خَفَّ وَزْنِي، وَصَرْتُ
رِيْشَةً لَمْ تَرْحَمْهَا رِيحٌ؛ وَإِذْ بِجَوْفٍ آخِرٍ يَتَفَتَحُ، وَيَخْرُجُ مِنْهُ أَبِي، وَقَدْ
رَمَى أَمَامِي كَفَنَهُ، فَلَهَيْتُ، فَوَجَدْتُهُ عَادَ صَلْبًا، كَمَا كَانَ، لِيَمْضِيَ؛

ويقاربُ المنشد، وعينه قد شرعتا تتلقفان درر الأشعار.
ولما لاحظَ أبي إشراقتي، سمعت ذات صوته، وقد هتف:
انظر.

وإذ بالقبور تتفتح تباعا كثمار، وعظامُ النزلاءِ تتماثل قائمةً، لتمشي،
وتأتي المنشدَ صامتةً، ثمَّ الأرجاء ما لبثت اهتزت بجموع المنشدين،
حتى بدوا فرقةً شديو هائلة
الله

هذا ما قلتهُ أنا، متمنيا لذلك أن يدوم، وألا أفجع بصحوٍ مقيت

- 21 -

الأعرابيَّ الجميل

كنا في مسلخ سجن غزة مُعلّقين كذبائح بهو ... شيطانُ الصمت
يختالُ، السقفُ قريب، لا تلمسه يدان، وبلاطُ الأرض تفصله عن
أطراف القدمين بضع بوصات.

ما جرى لم يزل يسكنني .. حين جاءت الأقدام، وأنزلوا زويّد؛
نزعوا كيس وجهه، ليرى وجه أبي حديدٍ، وما تسنى لحظاتها من
الدنيا

اسمك .. عمرك .. إقامتك ..

أشرح علاقتك بالمخابرات المصرية.

سكت زويّد؛ فصفعه أبو حديد .. سمعتُ الصفعة، ثمّ صوت
زويّد .. خلته يشير، وهو بالبدويّة الثابتة يقول: أنت تضربني؟
سمعت قهقهة أبي حديد.

كلّنا ونحن في الأكياس؛ سمعناه وهو يقول:

اسمع .. أنتُ مخبر .. وأنا مخبر .. لكن إن كنت رجلاً مضيئاً على الورق.

جنّ جنون أبي حديد، صار ذئباً مصاباً بالسعار، يعوي على ظهر جمل.

كان زويّد طويلاً، عريضاً بصدر حصان.

استقبل الضربات، وهو يردّد:

إن كنت رجلاً مضيئاً على الورق.

خيم صمت طویل، ثم انفجر البهو .. كان أبو حديد قد استقدمهم جميعاً، وكانوا أحد عشر، يرأسهم من أسمى نفسه أبو عادل .. صار البهو ساحة وغى .. صدّهم جميعاً .. كانوا يدكونه بالعصي، وبالقبضات، وبأعقاب البنادق.

انتقلنا إلى غرف العنابر .. مضت الأيام، صارت تأتينا إلى الغرف أفواجٌ جديدة، وكان سؤالي الأول دوماً:

هل يوجد هناك شخصٌ اسمه زويّد؟

ودوما كانت الإجابة تأتيني:

ياه يا لذاك الرجل.

بعد ستة أشهر خرج زويّد من الزنازين، على ساقيه مشى مع آخرين إلى ساحة السجن، صعد حافلة الصليب الأحمر .. غادر زنازين بلادنا إلى شمسٍ بلادِه مصر .. من غير أن يوقع على أيّ ورق.

- 22 -

كلام الورود

قالت الوردة في بلادِ النّوح: ما شأن هذه البلاد لا تصغي لهمسٍ وقت صبح، ولا تجيّد الترّنم بالحياة؟

قالت الوردة لأختها الوردة: قومي صغيرتي؛ نهجر، ونسبح في فضاء الأغنيات .

قالت الوردة للورود: انظرن تلك الحدود عبر الرصيف، وارقبن كمّ الشحوب .

قالت الوردة: قلبي ضعيف مثل كلّ قلوب الورد، وهذه الأرض لا ترانا، ومن بعد وقتٍ ستدوسنا أحذية الجنون .

قالت الوردة: ليس أدلّ على ذلك من الغمام الجاثم على الطرقات، وذياك الحزن، وجمود الملامح في الوجوه .

قالت الوردة: نحن فوق الظلّ نحيا، وتحت الشمس، شرابنا النسيم، وترانيم الفَراش .

وقالت الوردة: ليس في هذه الأرض حياة، لا ولا فيها مقام .

- 23 -

احتواء

وقفَ ببابِ بحرِ غزّة، يَرْقُبُ مَوْجَه، ولَمَّا استغرق؛ تماهى، وحدّق،
وقد نسيَ مَواجِعَه، وشيئًا فشيئًا صار البحرُ يحادثه، وشيئًا فشيئًا
أصابه الذهولُ، وقد علّم أن البحرَ يعرفُه، وكان الموجُ رسولًا،
وتقلّبَ رسائل، كان الهديرُ كلامًا، والأصواتُ تتغيّرُ، تتألفُ تراكيبُ
وجملًا .. وشيئًا فشيئًا غمره فرح، وحلّق في صدره عصفورُ سرورٍ
.. ما أبهى انكشاف البحرِ، ما أشهى الألفة مع رفيقه المعشوق منذ
القدم، صاح البحرُ، وصاح هو .. همس البحرُ، وهمس هو، بكى
البحرُ، وبكى هو .. وكان يهتزُّ، ويهتزُّ، حتى جاءت لحظةٌ، تصلّب
فيها، وقد مدّ ذراعيه، فقاربه البحرُ، حتى احتواه، أخذت ذراعا
البحرِ بذراعيه، وكان هو قد أصابه الجذلُ؛ وقد كان محبوبًا راضيًا،
حينما البحرُ طواه.

- 24 -

روما إلى السماء

ببطءٍ يستدير، وببطءٍ يرفعُ عنقه،

يغيبُ في سفرٍ طويل

دوماً إلى السماء

يلتفتُ كطير، وعينه تُحدّقان في ذات الاتجاه.

قالوا: مجذوبٌ. وقالوا: فيلسوفٌ. وقالوا: فاسقٌ مرتدٌ.

اليوم راقبوه؛ وهو يحّدق .. حدّق تحديقَ مودع .. رmq غيما كشيئا،

ورmq خيلا تحبُّ، ورمقَ جيوشَ طيرٍ ترفُّ، ورمقَ الأبعد، ثمَّ من

بعدها أشار بذراعِهِ، وهوى

وكانت تحديقته الأخيرة.

- 25 -

ثرثرة قرب الموت

أحد عشر ثقباً بالتمام في حائط السيراميك المتسخ .. صنبور أيضاً
يقطر مائه بلا توقف .. بلاط ودهليز ضاربان في الزمن .. ممرضة
شعثاء بخطو رجل .. أنا أنسج من دمي اليقظ حكايات الهزائم كلها
.. مقعدي يواجه مشاهد تستدعي التفكير بالموت .. كل شي هنا
ينادي موته .. أقف لأسعف ظهري المتصلب .. أقف، وحول نفسي
أدور .. ترمقني الشعثاء بعيني نمرة، فأظنها اخترقت عقلي .. أظنها
ضبطتني معترضا .. الطبيب اليأس يثير الرعب في الأفئدة .. الأسرة
المدفوعة يضيق بها الدهليز .. أنا اكتب هنا .. أظني مجنوناً .. أظني
خائباً في اختيار الأمكنة .. البحر قريب؛ لم لا تسرق له ساعة من
وقتك؟ .. وهنا تذكر مقبرة المخيم مكتبك الأول في القراءة والكتابة
.. قالوا: أدبك مولود في المقبرة؛ لكنه سيحيا. عجبت من كشفهم ..
قالوا: المقبرة دوماً لديك حاضرة.

ماذا يمكن أن يكتب في مستشفى؟

ماذا كان يمكن أن يكتب في مقبرة؟

وأنت الحبيس منذ عقود .. تراوح بين الجدوى وعدمها .. تراوح
بين العبوس، وطبيعتك العارية.

الدهليز يضيق .. الدهليز ينفرج .. الدهليز ينفجر بصراخ قوم؛
مات للتو مريضهم .. الثقوب في السيراميك تثقب روحك .. تنقيط
الصنبور أقوى من صليات .. الشعثاء لعينة .. الشعثاء صفة عصر
.. وروحُ العصر يأس الطبيب الرائح الغادي ..

- 26 -

السجين

من وحي ما جرى في مخيم جباليا سنة 1982

«الذئب»

من أين كنت ستدري أن العربة ستجأُ فوقك، وأنت المغرُمُ
بالخلوة يا صاح، يسكرُك الشجرُ المتراص، يزهرُ بالأصفر، ويُعَطِّرُ
قلبك شذاه.

كنت ظمئاً لربيع تتوالدُ نسائمه؛ فأتاك المتفوقُ في صحبه، حطموا
الظلالَ بعجلاتِ عربة الجيب، وأداروا زوبعةَ الرمال.
في ثنايا دغلِ الأكاسيا المتبقي، كان آخرُ مشهدٍ سربَ يمامٍ شقَّ
الأغصان، وأصفادُ نايلون بدأت تتوحشُ داخلَ لحِمك.
صغيرتُك إلى العربةِ جاءت صدرك، تبكي ..
والمتفوقُ فوقك يتصايح:

— جنتني.

اسمك في حشرةِ الجهازِ صار يأتي، ويروح، وعقلُك في الصراخ؛
لم يفهم، صرتَ في كيسٍ خيشٍ خروفا مذبوحا، والمتفوقُ على ظهرِكَ؛
يسبُّ دينك، ويلهث .. كانت عربته في الصبح عبرت السوق، وكان
كذئب، توحش فمه على السيجار، وبين البسطاتِ تحطَبَ وجهه.

«المخيم»

هي الهيجاءُ الأخيرة ..
والناظرُ يصرخُ:

- يا مجنون.

وكتابُ التاريخ يهيجُ، يصفقُ صفحاتِه، ومن راحتك يرحل ..
ينفلتُ كصقرٍ إلى السلكِ الشاهقِ، وهناك يرقد.

الناسُ كانت تهزُّ الأسلاكَ، والحجارةُ طارت سكاكين تترنح .
سقط أول ما سقط الولدُ سهيلاً، فزارَ المخيمُ، واهتز صفيح البيوت
.. كان لحظتها ثمة جنيّ ينفخُ في صور ..

كانت الشمسُ جنّت لحظتها، ضربت ضربتها، فضحّت الأزقة
كلّ الناسِ ..

- ممنوع التجوّل

ممنوع

يا أهالي مخيم جباليا

ممنوع

مكبرُ الصوت هدر للمرة الألف، لكنّ العبادَ كانوا في الشكنة
الرهيبة توغلوا، وشرعوا بأظافرهم يقضمون الأسلاك.

«العربة»

في رئتِكَ حريق
والمتفوقُ ترفُّعُه عن ظهرِكَ حفرُ الطريق
وعجلاتُ الجيبِ تزجرُ في سفرٍ طويلٍ ..
جمعتَ صدركَ، لتستردَّ عضلةً زاغتَ، فارتفعَ المتفوقُ، ثمَّ هوى،
عدتَ بالشهقةِ تدفعه، ليسقطه الزفيرُ.
وسمعتَه وهو يلطمُك:

— من أسبوعٍ أطارِد في دينك ..

توقفَ المحركُ، فجاء طويُّ الموج، واللَّغَطُ خالطَه الطنينُ، ثمَّ
للحظاتٍ عمَّ صَمْتُ، وحاولتَ التخمينَ، لكنَّهم أوقعوكَ، فدكَّ
الإسفلتُ عَظَمَكَ .. من مساماتِ الخيشِ لمحتَ حذاءَ المتفوقِ
يأتيكَ، من ساقِكَ جرَّكَ، ثمَّ رفعَكَ، فدقَّكَ حديدٌ جديدٌ، وأنفُكَ
تشمِّمَ رائحةَ شاحنةٍ، وهدرَ المحركِ، ليمتدَّ السفرُ:

أيَّ مصيبةٍ كانوا يدبرون؟

بعدَ زمنٍ توقفوا، والمتفوقُ حملَكَ؛ ليعيدَكَ ثانيةً إلى عربةِ الجيبِ.

«الشنقة»

أنزلوك، فسمعتَ خوارا، ويهوديٌّ بفأسٍ على كومةٍ تبينُ تراءى ..
حملك المتفوقُ، ليلهتَ تحتك، صعد سلما بلا انعطافٍ، وانحرفَ
في صريرِ بابٍ، وبعد خطواتٍ قذفك، ليهوى بأنفاسِهِ عليك، ربّط
ساقيك بتورمٍ كفيك، ثمَّ كلَّك بساقٍ سرير، صرتَ قفة، تهوي في
بحرِ الدهشة ..

دقائقُ كدهرٍ مرّت .. جاء صياحُ أولادٍ من الخارج، وأقدامُ فجأةٍ
جثمت، نزع الكيسَ، وقال:

— أهلا .

ناعما أصفر، يزُمُّ السبابةَ على الإبهام، ودفعَةً واحدةً صاح:

— أنت مختطف حببي، في شقّةٍ لأقوى مخبرات في العالم.

راودتك رغبةٌ تسليكٍ لحلقك المسدودِ ببصقة.

— وما في حكي، اعترافك أو موتك.

هزَّ أصابعه ومطَّ الكلمات:

— موت بلا جنازة.

مكثوا يعوون وأنت صنمٌ، تقف على ساقٍ، أو تنزلُ، وذراعاك
تحتك، قدماك فوقك، وعيناك في الكيسِ تبحثن، هم يزجرون، وأنت
تستدعي سَكينةَ قلبك، ضجيجُ الكونِ لفك، فأمسكت بعقلك.

«البغل»

سقفُ زنزانيةِ سجنِ المَجدلِ تراهُ يهوي، والجدرانُ كانت ملطخةً
بأفاعِ تسبح، البابُ جبلٌ بكوةٍ عينٍ لا تنفرجُ، ويشخصُ سجينانِ
فيك، غليظٌ كبرميل، وآخرٌ مثل جرادة.

قبل أن يدفعَكَ اليهوديُّ، خلع الكيسَ عن رأسِكَ، لكنَّ الدنيا
ظلت قاعاً مقفلاً، انزلق الظهرُ على بابِ الزنزانية. في المخيمِ قالوا:
قبوُ المَجدلِ مصيدةٌ من لا يعترفُ.

هل النزيلان هنا هما المصيدةُ؟

تفرستَ في ترقبهما، وانتظرت هجمةَ الاثنينِ، فقررتِ المبادرةَ.
قلت: تقفزُ، فتخصيَ الفحلَ، وتركُ الجرادةَ لبعضِ الوقتِ.

سألاك عن اسمِكَ

قلت: معلّمٌ مخطوفٌ.

وقلت: مجلوبٌ من شقةٍ في عالمٍ مجهولٍ.

كنتَ تريدُ نشرَ خبرِكَ لخلقِ اللهِ، حتى لو في مصيدةٍ، لكنَّ عيونهم
اتسعت...

هل تندمُ على البوح؟

عند جليبكِ إلى السَّجنِ صلبوكِ في بقعةٍ ركنٍ آسنَةٍ، فهاجمتِ
قدميكِ جيوشَ بعوضٍ، صرتِ تماثلاً أعمىً بقدمينِ دملينِ، ترفعُ
دُملاً لتحكَّ دملًا، ومع الوقتِ التفتتِ مؤذنُ السَّجنِ، فطويتِ مع
الصوتِ الأوقاتِ، تحسبُها..

في الشقةِ تباروا عليكِ، قالوا:

ستموت.

قالوا:

— سندفكِ نحنُ بلا تشييع.

أيدبحونكِ بسكينٍ؟ أم في الليلِ يعيدونكِ، إلى أغصانِ الأكاسيا،
ويطلقونَ الحبةَ علي رأسكِ؟

حشدُ البعوضِ أسوأُ ما في الدنيا.

هل دلقوا الماءَ عن قصيدٍ، ليهرِّي البعوضُ بدنكِ؟

في يومِ صرختِ، لتسمعِ صوتكِ.

هاجَّ عليكِ حارسٌ:

— اسكت

ارتحتِ لكسرِ الصمتِ، وصرختِ:

- أنا منذ ليال لم أكل .
دقّ ظهرك، وبعد وقتٍ عاد:
— أنت...؟
فاكتشفت أنّ في الدنيا غيرك .
في ليلٍ سبتٍ؛ صرّ بابُ الحراسِ، عبرَ صراخٍ سجينٍ قادم، وسمعتَ
الحارسَ:
— قل لحضرة الضابط .
وقال القادم:
— ماذا أقول؟
— قل من سرق البغل .
ووصلتكم شجرةُ القادم:
— خنخ... والله!
— أنت سرقت البغل؟
— البغل؟
شبعوا ضحكا، ثمّ عاد الصمتُ .
والجارُّ الجديدُ طرقَ الجدارَ:
— يا شباب
— من الكريم؟
ذكر اسمَه، فعرفه النزيلانِ، طلبَ سيجارةً، فقضيتمُ الليلَ تنادون..

شتمَ السَّجَانُ عَرَبَكُمْ، وملوكُكُمْ، لكنَّ الكَوَّةَ فُتِحَتْ، وأُطلَّ بوجهِ
كالضَّبْعِ، نقلَ هديتكم، وعاد السَّجْنُ يمارسُ الصَّمْتَ.
لكنَّ الجَارَ الجديدَ قطعَ الصَّمْتَ بأهازيجَ رَقَّصَتِ الجدرانَ،
ورفِيقاك صارا يكرران السؤالَ عن هِجْمَتِكَ المقررةِ عليهما، وتسردُ
تفاصيلَ خطيتك، وفي ضَحِكٍ هستيريٍّ تغرقونَ، فينفجرُ الصوتُ
الأمْرُ في الخارجِ مَثَقَلاً بِرَائِحَةِ عَطَنِ السَّجْنِ:
- اسكُتْ.

- 27 -

منامات

في المنام رأى أحدهم مع زوجته، فهبّ يجري؛ حتى وجده وسط السوق؛ سدّد له اللكمات؛ فعمّ هرج، ومرج، وقامت القيامة، وتناثرت البضاعة .

في المنام رأى صبيّ الجيران تحت الحائط، يراوغ دجاجاته، فقام فزعا، ولم يستكن؛ حتى عثر عليه على باب المدرسة الابتدائية، فربض على الصبيّ بجسده الثقيل، وتصايحت الأولاد، إلى أن جاء بواب البوابة؛ فصارعه حتى خلص الصبيّ ..

في المنام صاروا يأتون، وصار هو يوما بيوم يصرعُ شخصا، أو اثنين؛ إلى أن صار يجري في الأزقة بخرقة سوداء، يلوح بها تارة، وتارة يعضُّ عليها، وأمه منحنية الظهرِ باكية تحوم.

الفهرس

- 1 - المستكشف 3
- 2 - وسيلة عبور 5
- 3 - عرشي الصَّقيل 7
- 4 - ظهرُ جدتي 9
- 5 - دمعٌ وحشجة 13
- 6 - تدخين 15
- 7 - محمود 17
- 8 - تعاؤد 19
- 9 - فتوحات 21
- 10 - واحة الخالسين 23
- 11 - إطعام 27
- 12 - الأصنام 29
- 13 - خلف بيتي ذئب 33
- 14 - الديكُ الذي أضحى دودة 35

39	 15 - المُعَلَّمُ بهجت
41	 16 - يَوْمٌ دراسيٌّ
43	 17 - كَشْفُ العارفين
45	 18 - يَمْنِيَّةُ بيتنا
47	 19 - عقاب
49	 20 - استرخاء
51	 21 - الأعرابيُّ الجميل
53	 22 - كلامُ الورود
55	 23 - احتواء
57	 24 - دوماً إلى السماء
59	 25 - ثرثرة قرب الموت
61	 26 - السجين
75	 27 - منامات

